

افتتاحية

الكتابة السوسيو لوجية العربية

تحليل بعض المتغيرات في مقالات مجلة «إضافات»

ساري حنفي^(*)

أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت.

إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، هي مجلة محكمة تخضع لمعايير متعارف عليها في المجالات الدولية. فكلّ مقالة أو مراجعة لكتاب ترسل إلى مراجعين، ومن ثم تعرض على هيئتي تحرير؛ هيئة تحرير المجلة، وهيئة تحرير المجالات التي يصدرها مركز دراسات الوحدة العربية (المستقبل العربي، وبحوث اقتصادية عربية، والمجلة العربية للعلوم السياسية، وإضافات). فالمجلة تصدر عن الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، ويقوم المركز مشكوراً بتحرير المواد التي تمّت الموافقة عليها^(١).

وقد صدر عن مجلة إضافات أعداد غير دورية منذ عام ٢٠٠٠، بمعدل عدد كل سنة ونصف. ولم تبدأ بالانتظام إلا في ربيع عام ٢٠٠٨، حيث صدر العدد الأول، وتوالت بمعدل ٤ أعداد سنوياً. وقد ارتأيت أن أقوم بعمل تقييم لكل أعداد إضافات الثمانية عشرة التي صدرت منذ عام ٢٠٠٨ حتى عام ٢٠١٢، وذلك بالنظر إلى بعض المتغيرات

sh41@aub.edu.lb.

(*) البريد الإلكتروني:

أودّ توجيه الشكر إلى مُعبّدة كسر على جهدها الكبير في إدخال المعلومات المطلوبة حول مقالات مجلة إضافات. ويعتبر تحليل مجلة إضافات جزءاً من مشروع كبير حول إنتاج المعرفة في الوطن العربي الذي يقوم المجلس الوطني للبحوث العلمية في لبنان بدعمه. لذا أقدم بالغ الشكر والامتنان له.

(١) أقدم الشكر الجزيل إلى المؤسسة العربية للثقافة على دعمها السخي للمجلة.

المتعلقة بالكتّاب وطبيعة المواضيع المتداولة والمراجع التي استخدمت في المقالات المنشورة.

أولاً: من هم كتّاب مجلة إضافات؟

كما يوضح لنا الجدول الرقم (١)، فإن إضافات قد تلقت بحدود ٥٨٤ مادة، تضمّ، إضافة إلى المقالات، مراجعات كتب، وتقارير ندوات، وكذلك افتتاحيات أعداد المجلة. وقد تم نشر ٢٤٨ مادة، مشكّلة بذلك ٤٢,٥ بالمئة من المواد المقدمة بشكل عام، و٣٩ بالمئة من المواد المقدمة من بلدان الوطن العربي.

وإذا أخذنا توزيع المواد، بحسب جنسية المؤلف الأول (وليس مكان عمله)، نلاحظ أن نسب قبول المقالات تراوحت، بشكل عام، بين الثلث والنصف لأغلب الدول. وفي الحقيقة، لا يمكن أن نسارع إلى الاستنتاج بأن ذلك يعكس نوعية المواد المنشورة، حيث إن هناك معايير ثلاثة أساسية حكمت اختيار المواد للنشر: المعيار الأول هو طبعاً مدى جودة المادة المقدمة من حيث تناول الموضوع واتباع أسس البحث العلمي، والمعيار الثاني هو توزيع المواد بحسب دول البحث والموضوع، والمعيار الثالث هو سياسة اتبعتها المجلة تتمثّل بالتمييز الإيجابي لصالح طلاب الدراسات العليا والباحثين الناشئين الذين يرغبون في نشر أول دراسة لهم. وقد ميّزنا هنا بين الجنسيات العربية والجنسيات الأخرى، إذ إن الفرق التحليلي كبير. فأغلب مقالات الكتّاب الأجانب التي طرحت للنشر كانت قد طلبت منهم، وقمنا بترجمتها إلى العربية باعتبارها مقالات أساسية حول مناهج ونظريات جديدة في علم الاجتماع^(٢).

الجدول الرقم (١)

توزيع المواد المقدمة بحسب جنسية المؤلف الأول

البلد	عدد المقالات أو مراجعات الكتب المنشورة	نسبة المقالات أو مراجعات الكتب المنشورة	عدد المقالات أو مراجعات الكتب المرسلة: إلى المجلة	نسبة المقالات المقبولة (بالمئة)
المغرب	٤٢	١٦,٩	١٠٨	٣٨,٩
فلسطين	٣٩	١٥,٧	٩٦	٤٠,٦
لبنان	٣٢	١٢,٩	٩٨	٣٢,٧
تونس	٣٠	١٢,١	٦١	٤٩,٢
الجزائر	٢٠	٨,١	٥٦	٣٥,٧
مصر	١٦	٦,٥	٤٦	٣٤,٨
العراق	١٤	٥,٦	٣٩	٣٥,٩
البحرين	٣	١,٢	٧	٤٢,٩
الأردن	٣	١,٢	٨	٣٧,٥

يتبع

(٢) أتقدم هنا بالشكر إلى مؤسسة هنرش بول الألمانية على دعمها ترجمة بعض المقالات إلى اللغة العربية.

تابع

٦٠	٥	١,٢	٣	السعودية
٥٠	٤	٠,٨	٢	الكويت
٥٠	٤	٠,٨	٢	ليبيا
١٠٠	٢	٠,٨	٢	عمان
٤٠	٥	٠,٨	٢	سورية
٣٣,٣	٣	٠,٤	١	موريتانيا
١٠٠	١	٠,٤	١	قطر
٢٥	٤	٠,٤	١	السودان
١٠٠	١	٠,٤	١	الإمارات العربية المتحدة
٠	٠	٠	٠	اليمن
٠	٠	٠	٠	جيبوتي
٠	٠	٠	٠	جزر القمر
٣٩,١	٥٤٨	٨٦,٢	٢١٤	المجموع الكلي للوطن العربي
١٠٠	١٤	٥,٦	١٤	فرنسا
١٠٠	٥	٢	٥	الولايات المتحدة الأمريكية
٦٠	٥	١,٢	٣	ألمانيا
١٠٠	٢	٠,٨	٢	سويسرا
١٠٠	١	٠,٤	١	سنغافورة
١٠٠	١	٠,٤	١	باكستان
١٠٠	١	٠,٤	١	هولندا
١٠٠	١	٠,٤	١	النمسا
١٠٠	١	٠,٤	١	كندا
١٠٠	١	٠,٤	١	الدانمارك
١٠٠	١	٠,٤	١	أوروبا
١٠٠	١	٠,٤	١	إيران
١٠٠	١	٠,٤	١	جامايكا
١٠٠	١	٠,٤	١	اليابان
٩٤,٤	٣٦	١٣,٦	٣٤	المجموع الكلي للبلدان الأخرى
٤٢,٥	٥٨٤	١٠٠	٢٤٨	المجموع

ولدراسة توزيع المواد، بحسب جنسية المؤلف الأول (وليس مكان عمله)، فقد ارتأينا الاكتفاء بتحليل المقالات التي تشكّل ٥٧ بالمئة من مجموع المواد (١٤١ مقالة) (انظر الجدول الرقم (٢)). هذا وقد ارتأينا دراسة توزيع المقالات بحسب المؤلف الأول فقط للمؤلفين العرب (١٢٠ مقالة).

الجدول الرقم (٢)
توزيع المواد المنشورة بحسب نوعها

النسبة المئوية	العدد	
٥٧,٣	١٤٢	مقالة
٣٥,١	٨٧	مراجعة
٣,٦	٩	تقرير لمؤتمر
٣,٦	٩	مقدمة
٠,٤	١	أخرى
١٠٠	٢٤٨	المجموع

وكما يوضح لنا الجدول الرقم (٣)، فإن هناك مشاركات من كافة أنحاء الوطن العربي، ما عدا اليمن وجيبوتي وجزر القمر.

الجدول الرقم (٣)
توزيع المواد المنشورة بحسب جنسية المؤلف الأول

النسبة المئوية	العدد	البلد
١٨,٣	٢٢	تونس
١٦,٧	٢٠	المغرب
١٥	١٨	الجزائر
١٤,٢	١٧	لبنان
١٠,٨	١٣	فلسطين
٨,٣	١٠	العراق
٦,٧	٨	مصر
٢,٥	٣	الأردن
١,٧	٢	البحرين
١,٧	٢	ليبيا
٠,٨	١	الكويت
٠,٨	١	موريتانيا
٠,٨	١	قطر
٠,٨	١	السعودية
٠,٨	١	السودان
١٠٠	١٢٠	المجموع الجزئي
	٢١	جنسيات أخرى
	١٤١	المجموع

وكما نلاحظ، فإن هناك ثلاث دول مغاربية كان لها الحظ الأوفر في النشر، وهي تونس (٢٢ مقالة، مشكلة ١٨ بالمئة من عدد المقالات المنشورة)، والمغرب (١٧ مقالة، مشكلة ٢٠ بالمئة من عدد المقالات المنشورة)، والجزائر (١٨ مقالة، مشكلة ١٥ بالمئة من عدد المقالات المنشورة). ويمكن أن أعزو حجم النشر المتميز إلى عاملين:

العامل الأول هو جودة التعليم الجامعي في العلوم الاجتماعية هناك، مقارنة بالجامعات الوطنية في المشرق العربي.

العامل الثاني هو الاستعمال الأكثر توازناً للمراجع العربية والأجنبية، بحسب ما سوف نتناوله لاحقاً. ولن أدعي أن التراث العلمي السوسيولوجي الفرنسي الذي يؤثر في هذه الدول الثلاث يتناسب أكثر مع إشكاليات هذه الدول، وربما مع الوطن العربي، أكثر مما يمكن أن يعطيه التراث الأنغلو سوسوني. ولعل ذلك هو خارج نطاق هذه الدراسة، وهذه الفرضية تحتاج إلى بحث معمق.

ويحتل لبنان (الذي يعتبر ذا سوسيولوجيا فرنكوفونية أيضاً) المرتبة الرابعة (١٧ مقالة، ١٤ بالمئة)، وتتبعه فلسطين (١٣ مقالة، ٩ بالمئة). وهنا ينبغي التنبيه إلى أن المقصود بالكتّاب الفلسطينيين ليسوا فقط الذين يعيشون في الأراضي الفلسطينية، ولكن أيضاً في الشتات (انظر الجدول الرقم (٣)).

وفي ما يتعلق بمشاركة الباحثين في كتابة المقالات، فقد أظهرت الدراسة قلة هذه المشاركة، إذ إن هناك ٩٤ بالمئة من المقالات (١٣٣ مقالة) مكتوبة من قبل مؤلف واحد (انظر الجدول الرقم (٤)).

الجدول الرقم (٤) مشاركة الباحثين في كتابة المقالات في «إضافات»

عدد المؤلفين المشاركين في المقالة الواحدة	عدد المقالات	النسبة المئوية
١	١٣٣	٩٤,٣
٢	٥	٣,٥
٣	٢	١,٤
٤	١	٠,٧
المجموع	١٤١	١٠٠

وحول طبيعة البحوث الذي بنيت عليه المقالات، فقد لاحظنا أن هناك فقط ٢٩ بالمئة من المقالات (٣٧ مقالة) مبنية على بحوث ميدانية، بينما كان ما يمثّلها مقالات مبنية على قراءات (٣٠ بالمئة)، والباقي (٤٠ بالمئة) هي مقالات نقاشية (Essay) (انظر الجدول الرقم (٥)).

الجدول الرقم (٥) طبيعة البحوث التي بنيت عليها المقالات

النسبة المئوية	العدد	عدد المقالات	
٢٨,٩	٣٧	العمل الميداني	
٢٩,٧	٣٨	نقد كتابات موجودة	
٤١,٤	٥٣	المقالات النقاشية	
١٠٠	١٢٨	المجموع الجزئي	
	١٤	غير واضح	بيانات مفقودة
	١٤	المجموع الجزئي	
	١٤٢		المجموع

كُتِبَ ٨٣ بالمئة من المقالات في مجلة إضافات باللغة العربية، مقابل ١٦ بالمئة تمت ترجمتها من اللغة الفرنسية أو الإنكليزية لكتاب أجنبي أو عرب يدرسون غالباً في دول غربية. وقد مكّنت عملية الترجمة اطلاعاً أوسع للقارئ العربي حول مؤلفات كلاسيكية في علم الاجتماع (انظر الجدول الرقم (٦)).

الجدول الرقم (٦) اللغة الأصلية للمقالات

النسبة المئوية	العدد	
٨٣,٧	٨٣,١	نص أصلي بالعربية
١٦,٣	١٦,٢	مترجم
١٠٠	٩٩,٣	المجموع

ثانياً: طبيعة الأبحاث المدروسة

الكلمتان المفتاحيتان الأكثر تناولاً هما علم الاجتماع السياسي، وعلم اجتماع الهجرة (كل واحدة منها وردت ٢٤ مرة)، ولا نعتبر ذلك مستغرباً، نظراً إلى كون الوطن العربي يعيش في أزمة سياسية خانقة منذ استقلال هذه البلدان. وقد دفع ذلك بالكثير من أبناء الأمة العربية إلى الهجرة. كما شكّلت هذه البلدان أيضاً مكاناً جاذباً لهجرة العمال العرب والآسيويين. وتلا ذلك موضوعات في النظريات الاجتماعية (٢٠ مقالة)، ومن ثم في علم الاجتماع التاريخي (١٨ مقالة) الذي هو أيضاً دراسات نظرية حول كُتّاب عرب أو أجنبي ساهموا في بناء علم الاجتماع العربي والغربي. ولم تخل إضافات من دراسات حول علم اجتماع الدين (١٣ مقالة)، ومن بينها دراسات حول الإسلاميين في المنطقة. ولا غرابة في ذلك، حيث إنه لا يمكن تخيل دراسة للظاهرة الاجتماعية والسياسية في المنطقة من دون الأخذ بعين الاعتبار الدين كمتغيّر ذات أهمية، وخاصة في مجتمعاتنا التي لم تنجز بعد

عملية فصل الدين عن الدولة، ولم تتم مناقشتها في المجال العام العربي إلا مؤخراً، وخاصة بعد بركان الثورات العربية.

ولعل الدراسات ذات الطابع النقدي للإنتاج المعرفي في بلد ما، أو على نطاق الوطن العربي، قد شغلت ذهن الكثير من كتّاب مجلة «إضافات» (٩ مقالات). ونجد العدد نفسه لموضوع «الشباب»، و٦ لدراسات الجندر، و٥ للثورات العربية، و٥ أخرى للثقافة، و٤ لظاهرة الكولونيالية، وهكذا (انظر الجدول الرقم (٧)). ولكن ما يمكن أن يؤسف له هو قلة الدراسات التي تناولت الانقسامات الاجتماعية في الوطن العربي، وخاصة موضوع الانقسام الطبقي، حيث حظي كل منهما بورقة واحدة فقط.

الجدول الرقم (٧) الموضوعات التي عولجت في «إضافات»

٢٤	علم الاجتماع السياسي
٢٤	علم اجتماع الهجرة
٢٠	نظريات اجتماعية
١٨	علم الاجتماع التاريخي
١٣	علم الاجتماع الديني
٩	علم اجتماع المعرفة
٩	الشباب
٦	الجندر
٥	الثورات العربية
٥	علم الاجتماع الثقافي
٤	دراسات الاستعمار
٤	الدراسات الإثنية
٤	دراسات ظاهرة الإسلام السياسي
٤	دراسات الجنسانية
٤	الحركات الاجتماعية
٣	علم اجتماع الطفولة
٣	المجتمع المدني
٣	علم الاجتماع الاقتصادي
٣	الهجرة القسرية
٣	علم اجتماع الأدب
٣	السيمائية
٢	المواطنة
٢	الديمقراطية

تابع

٢	علم اجتماع التربية
٢	علم اجتماع وسائل الإعلام
٢	طرق البحث
٢	علم اجتماع العلوم
٢	النقابات
١	علم اجتماع الجمال
١	دراسات القبائل
١	الفساد
١	الكوسموبوليتيكية
١	علم الجريمة
١	علم السكان
١	دراسات الشيخوخة
١	علم اجتماع العائلة
١	الموضة
١	علم اجتماع الصحة
١	الهوية
١	الأيدولوجيا
١	علم اللغة
١	الذاكرة
١	المهنة
١	العنصرية
١	علم الاجتماع الريفي
١	الطبقات الاجتماعية
١	الانقسام الاجتماعي
١	علم النفس الاجتماعي
١	علم الاجتماع الحضري
١	العنف
٢٢٠	المجموع

نصل الآن إلى دراسة المراجع التي استخدمها الباحثون السوسيولوجيون الذين كتبوا مقالاتهم في إضافات. وسأركّز حالياً فقط على لغة المراجع، بينما سأقوم لاحقاً بعمل تحليل شبكي لطبيعة وأصحاب الشهادات (Citations) والمراجع التي استخدمها كتّاب إضافات.

ونلاحظ من الجدول الرقم (٨) أن هناك، بشكل عام، مكاناً متواضعاً للغة العربية في مقابل اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إذ نجد أن متوسط المراجع المستخدمة باللغة العربية

هي ٤, ٧ مرجع في المقالة مقابل ٧ للإنكليزية، و٩, ٤ للفرنسية، و٣, ٠ للغات أخرى، أي أن اللغة العربية تحظى بالمتوسط على ثلث المراجع فقط.

الجدول الرقم (٨) لغة المراجع المستخدمة في مقالات «إضافات»

المراجع بلغات أخرى	المراجع بالفرنسية	المراجع بالإنكليزية	المراجع بالعربية	
١٤٢	١٤٢	١٤٢	١٤٢	عدد المقالات
٠, ٢٨٩	٤, ٨٧	٦, ٩٩	٧, ٣٩	متوسط عدد المراجع

وقد حصل ذلك على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها هيئة تحرير المجلة التي تطلب عادة من كتّاب المقالات التي لا يراجعون فيها ما كتب باللغة العربية أن يفعلوا ذلك، وذلك عندما يشعر المراجعون أو هيئة التحرير بتوقّر مراجع إضافية تمتّ إلى الموضوع المتناول.

ولعل من المفيد أن ندرس توزيع متوسط استخدام المراجع في «إضافات»، بحسب جنسية المؤلف الأول، وذلك في محاولة لفهم العلاقة بين التكوين الجامعي واللغة المستخدمة في المراجع.

ونلاحظ جلياً من الجدولين الرقمين (٩) و(١٠)، أنه قد ازدادت نسبة المراجع باللغة العربية في المقالات الصادرة عن المشرق العربي عموماً (ما عدا لبنان)، مقارنة بدول المغرب العربي.

الجدول الرقم (٩) توزيع لغة المراجع المستخدمة في مقالات «إضافات» بحسب جنسية المؤلف الأول (مع حذف المقالات المكتوبة من قبل أجنبي)

المراجع بلغات أخرى	المراجع بالفرنسية	المراجع بالإنكليزية	المراجع بالعربية		
٠, ٠٥٦	٧, ٤٤	٢, ٩٤	٨, ٦١	متوسط عدد المراجع	الجزائر
١٨	١٨	١٨	١٨	عدد المقالات	
٠	٥	١٤, ٥	٠	متوسط عدد المراجع	البحرين
٢	٢	٢	٢	عدد المقالات	
٠, ١٢٥	١, ١٣	٧	٨, ٥	متوسط عدد المراجع	مصر
٨	٨	٨	٨	عدد المقالات	
٠, ١	٠, ١	١, ٧	١٣, ٩	متوسط عدد المراجع	العراق
١٠	١٠	١٠	١٠	عدد المقالات	
٠	٠	٠	١٧, ٣٣	متوسط عدد المراجع	الأردن
٣	٣	٣	٣	عدد المقالات	

يتبع

تابع

٠	١١	٠	١٦	متوسط عدد المراجع	الكويت
١	١	١	١	عدد المقالات	
٠	٢,٥٩	٩,٧٦	٥,٠٦	متوسط عدد المراجع	لبنان
١٧	١٧	١٧	١٧	عدد المقالات	
—	٠	٤,٥	٣,٥	متوسط عدد المراجع	ليبيا
٢	٢	٢	٢	عدد المقالات	
٠	١٢	٢	٢٢	متوسط عدد المراجع	موريتانيا
١	١	١	١	عدد المقالات	
٠,٢	٧,٠٥	٢,٧	٨,٣	متوسط عدد المراجع	المغرب
٢٠	٢٠	٢٠	٢٠	عدد المقالات	
٠	١,٠٨	١٠,٣١	١٣,٠٨	متوسط عدد المراجع	فلسطين
١٣	١٣	١٣	١٣	عدد المقالات	
٠	٠	٠	٨	متوسط عدد المراجع	قطر
١	١	١	١	عدد المقالات	
٠	٠	٣	٢٤	متوسط عدد المراجع	السعودية
١	١	١	١	عدد المقالات	
٠	٠	٠	٣١	متوسط عدد المراجع	السودان
١	١	١	١	عدد المقالات	
٠	٧,٠٩	٣,٠٥	٣,٠٩	متوسط عدد المراجع	تونس
٢٢	٢٢	٢٢	٢٢	عدد المقالات	
٠,٠٥٨	٤,٤٣	٤,٩٢	٨,٤٣	متوسط عدد المراجع	المجموع
١٢٠	١٢٠	١٢٠	١٢٠	عدد المقالات	

الجدول الرقم (١٠)

نسبة المراجع العربية المستخدمة في مقالات «إضافات» بحسب جنسية المؤلف الأول (مع حذف المقالات المكتوبة من قبل أجنبي)

النسبة المئوية للمراجع بالعربية	المراجع بلغات أخرى	المراجع بالفرنسية	المراجع بالإنكليزية	المراجع بالعربية	
١٠٠	٠	٠	٠	٣١	السودان
١٠٠	٠	٠	٠	١٧,٣٣	الأردن
١٠٠	٠	٠	٠	٨	قطر
٨٨,٩	٠	٠	٣	٢٤	السعودية

يتبع

تابع

٨٨	٠,١	٠,١	١,٧	١٣,٩	العراق
٦١,١	٠	١٢	٢	٢٢	موريتانيا
٥٩,٣	٠	١١	٠	١٦	الكويت
٥٣,٥	٠	١,٠٨	١٠,٣١	١٣,٠٨	فلسطين
٥٠,٧	٠,١٢٥	١,١٣	٧	٨,٥	مصر
٤٥,٥	٠,٢	٧,٠٥	٢,٧	٨,٣	المغرب
٤٥,٢	٠,٠٥٦	٧,٤٤	٢,٩٤	٨,٦١	الجزائر
٤٣,٨	.	.	٤,٥	٣,٥	ليبيا
٢٩,١	٠	٢,٥٩	٩,٧٦	٥,٠٦	لبنان
٢٣,٤	٠	٧,٠٩	٣,٠٥	٢,٠٩	تونس
٠	٠	٥	١٤,٥	٠	البحرين
٤٧,٣	٠,٠٥٨	٤,٤٣	٤,٩٢	٨,٤٣	المجموع
	١٢٠	١٢٠	١٢٠	١٢٠	

كيف نفسر ذلك؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا بالعودة إلى فهم إشكالية استخدام المراجع في البحث العلمي في الوطن العربي. ولذا، فسأقوم بسبر بعض نتائج بحث آخر قمنا به في عام ٢٠١١ حول استخدام المراجع من قبل الباحثين حاملي شهادات الماجستير والدكتوراه.

ثالثاً: استخدام اللغات في البحث العلمي

لقد استهدف الاستبيان ١٦٥ شخصاً، نصفهم تقريباً حاصل على شهادة الماجستير، والنصف الآخر حائز على شهادة الدكتوراه (بالترتيب ٥٦,٥ بالمئة، و٤٣,٥ بالمئة)، وقد نال ٦٦ بالمئة شهاداتهم من جامعات عربية، بينما حصل الباقي على شهاداتهم من دول أجنبية، وهي في الغالب شهادات الدكتوراه، ومحور موضوعها الوطن العربي.

تم وضع الاستمارة على الإنترنت، ثم أرسل الرابط إلى عيّنة من المفاتيح في كل الدول العربية، بحيث غطت هذه المفاتيح الجامعات العربية الحكومية والخاصة. وكان التجاوب مختلفاً من جامعة إلى أخرى، حيث استجاب ٤٧ بالمئة للبحث الميداني من الجامعات الحكومية العربية، مقابل ١٧ بالمئة من الجامعات الخاصة غير الربحية، و٢ بالمئة من الجامعات الخاصة الربحية، والباقي من الجامعات الأجنبية (٤٤ بالمئة). وقد غطى البحث بشكل أساسي المشرق العربي (٤, ٥٣ بالمئة)، وبشكل أقل البلدان العربية الفرنكوفونية (تونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا) (٣, ١٢ بالمئة)، بينما شكّلت الجامعات الأوروبية والأمريكية بالترتيب نسبة ٣, ٢٣ بالمئة و٤, ١٠ بالمئة. وقد سمح عدم تحديد تاريخ للتخرج الإمكانية لمقارنة استخدام المراجع لدى خريجي الثمانينيات والتسعينيات بأولئك الذين تخرجوا منذ بدء القرن الحالي، وقد جاءت النتيجة بالترتيب بنسبة ٩, ٤ بالمئة، و٨, ٩

بالمئة، ٣، ٨٥ بالمئة^(٣). بينما كان البحث يطمح إلى تناول كافة العلوم والبرامج. وقد استجاب الباحثون في العلوم الإنسانية والاجتماعية بنسبة ٧، ٨٥ بالمئة، مقابل ٥ بالمئة، و٣، ٧ بالمئة، ٦، ٥ بالمئة بالترتيب للعلوم الإدارية والطبيعية والتطبيقية.

كل ذلك يطرح إشكالية لأي درجة يمثل المسح مجتمع الباحثين في الوطن العربي. لذا سأخذ بعين الاعتبار ذلك عندما أقوم بالتحليل. من بين أولئك الذين يهتمون بالمراجع الإنكليزية شكّل جستور (Jestore) قاعدة البيانات الرئيسية، يتبعه «غوغل سكولر» (Google Scholar)، بينما يستخدم الفرنكوفونيون المتخّرجون حديثاً كيرن «Cairn» و revues.org. ويستخدم هؤلاء من خلال القواعد المذكورة المجلات الأجنبية الغربية ذات الطبيعة الأكاديمية البحتة، بينما ذكر الذين يهتمون باللغة العربية فقط تقارير الأمم المتحدة وغوغل، وهما عملياً ليسا قواعد بيانات أكاديمية. والأمثلة التي استحضرها الباحثون هي مجلات عربية ذات طبيعة أكاديمية بحتة (مجلة العلوم الاجتماعية، ومجلة إضافات... إلخ) أو موجهة إلى العموم (المستقبل العربي) أو صحف (السفير، والنهار.... إلخ).

لقد أعلن المستجوبون أن ٤٤، ٣١ بالمئة للمراجع المذكورة في أطروحة الماجستير أو الدكتوراه (بالترتيب ٣٣، ٢٩ بالمئة، ١٣، ٣٤ بالمئة) هي باللغة العربية، وهي أقل بكثير من نسبة استخدام المراجع الإنكليزية (٨١، ٤٧ بالمئة)، ولكنها أكثر من استخدام المراجع الفرنسية (٩٤، ١٨ بالمئة) أو المراجع في اللغات الأخرى (٨، ٢ بالمئة) (انظر الجدول الرقم (١١) حول الاختلاف بحسب نوع الشهادة).

الجدول الرقم (١١)

توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب نوع الشهادة

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	الماجستير/الدكتوراه	
١,٩١	١,٢٤	٥٠,٥٢	٢٩,٣	المعدل	الماجستير
٨٧	٨٧	٨٧	٨٧	العدد	
١,٦٩	١٩,٨٣	٤٤,٥	٣٤,١٣	المعدل	الدكتوراه
٦٨	٦٨	٦٨	٦٨	العدد	
١,٨١	١٨,٩٤	٤٧,٨١	٣١,٤٤	المعدل	المجموع
١٥٥	١٥٥	١٥٥	١٥٥	العدد	

(٣) هذا الاستبيان في طور الإنجاز، لذا لن أقوم في هذه النسخة من الدراسة باستثمار الكثير من المتغيرات، ولا بالربط الثنائي والثلاثي بينها، ولا بقياس قوة علاقات الترابط بين المتغيرات. فهو يحتاج إلى شهر آخر للاستكمال. أما التحليل الكيفي لاستخدام المراجع، فسيكون في مرحلة مقبلة. وفي هذا السياق، لا بد من ذكر أهمية دراسة أحمد موسى بدوي (عام ٢٠٠٩) حول حالة أطروحات الدكتوراه في الجامعات المصرية، حيث لاحظ أن غالبية المراجع المستخدمة هي كتب قديمة، وهناك مشكلات في الفرضيات نابعة من غياب مراعاة الإنتاج النظري الجديد في علم الاجتماع، والنماذج المعرفية التي يدرسها الطلاب تقليدية وغير إبداعية، وغير نقدية، وتغيّب المجتمع المصري.

ويستخدم المستجوبون من المشرق والمغرب العربي نسبة المراجع العربية نفسها (بحدود ٤٠ بالمئة)، وهذا يعدُّ أكثر بكثير من خريجي الجامعات الأجنبية (بالترتيب ١١ بالمئة في أوروبا، و١٧ بالمئة في أمريكا الشمالية). بينما يظهر بكل وضوح استخدام اللغة الإنكليزية بنسبة عالية في المشرق العربي وأمريكا وأوروبا (بالترتيب ٥٠ بالمئة، و٧٣ بالمئة، و٥٣ بالمئة) مقابل الفرنسية في المغرب العربي (٤٦ بالمئة) (انظر الجدول الرقم ١٢).

الجدول الرقم (١٢)

توزع استخدام المراجع بحسب المنطقة الجغرافية

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	المنطقة	
٠,٩٥	٨,٧٥	٥٠,٣٥	٣٩,٩٥	المعدل	المشرق العربي
٨٤	٨٤	٨٤	٨٤	العدد	
٦,٨٩	٤٥,٦٣	٧,٦٣	٣٩,٨٤	المعدل	المغرب العربي
١٩	١٩	١٩	١٩	العدد	
١,٨٩	٣٣,٠٧	٥٣,٩٢	١١,١٣	المعدل	أوروبا
٣٦	٣٦	٣٦	٣٦	العدد	
٠,٩٤	٨,٤١	٧٣,٣٥	١٧,٢٩	المعدل	أمريكا الشمالية
١٧	١٧	١٧	١٧	العدد	
٠	٠	١٠٠	٠	المعدل	بلدان أخرى
١	١	١	١	العدد	
١,٨٨	١٨,٧	٤٨,٨	٣٠,٦٢	المعدل	المجموع
١٥٧	١٥٧	١٥٧	١٥٧	العدد	

ولعله ليس غريباً أن المستجوبين فقط خريجو العلوم الاجتماعية (٣٤ بالمئة) الذين يستخدمون المراجع العربية بنسبة معقولة، بينما يقل ذلك كثيراً لدى العلوم الإدارية والسياسية (بالترتيب ١٨ بالمئة و١٧ بالمئة)، وتنعدم لدى خريجي العلوم التطبيقية (هندسة، طب، تغذية). ويصبح الاتجاه عكسياً في ما يتعلق باستخدام المراجع الأجنبية لدى خريجي هذه العلوم الثلاثة (بالترتيب ٦٠ بالمئة، و٨٣ بالمئة، و٧٦ بالمئة) (انظر الجدول الرقم (١٣)).

الجدول الرقم (١٣)

توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب نوع فئات العلوم

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	فئات العلوم	
١,٨٦	١٩,٤٩	٤٤,٤٣	٣٤,٢٣	المعدل	العلوم الاجتماعية والإنسانية
١٣٥	١٣٥	١٣٥	١٣٥	العدد	
٢,٣٧	١٦,٢٥	٦٣	١٨,٣٨	المعدل	إدارة الأعمال
٨	٨	٨	٨	العدد	

يتبع

تابع

٠	٠	٨٣,٢٣	١٦,٦٧	المعدل	العلوم الأساسية
٦	٦	٦	٦	العدد	
٢,٥	٢١,٨٨	٧٥,٦٣	٠	المعدل	العلوم التطبيقية
٨	٨	٨	٨	العدد	
١,٨٥	١٨,٧	٤٨,٤٥	٣١	المعدل	المجموع
١٥٧	١٥٧	١٥٧	١٥٧	العدد	

ولكن يُظهر الموضوع جلياً أن استخدام المراجع باللغة العربية كمراجع للأطروحات مرتبط باللغة المستخدمة في التدريس، فنسبة استخدام اللغة العربية انخفض من ٤٩ بالمائة لخريجي الجامعات الوطنية إلى ١٧ بالمائة للجامعات الخاصة غير الربحية التي تعتمد اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في التدريس، وكذلك للجامعات الخاصة الربحية والجامعات الأجنبية. ويصبح الاتجاه عكسياً في ما يتعلق باستخدام المراجع الإنكليزية لدى خريجي هذه الجامعات (بالترتيب ٢٢ بالمائة، ٦٦ بالمائة، و٦٥ بالمائة، و٦٢ بالمائة) (انظر الجدول الرقم ١٤).

الجدول الرقم (١٤)

توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب نوع الجامعة

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	نوع الجامعة	
٢,٥٩	١٦,٦٩	٣١,٨٩	٤٨,٨٢	المعدل	وطنية
٧٤	٧٤	٧٤	٧٤	العدد	
٠	١٦,٧٤	٦٦,١٥	١٧,١١	المعدل	خاصة غير ربحية
٢٧	٢٧	٢٧	٢٧	العدد	
٠	٠	٦٤,٦٧	٣٥,٣٣	المعدل	خاصة ربحية
٣	٣	٣	٣	العدد	
١,٩١	٢٣,١٢	٦١,٩٨	١٢,٩٩	المعدل	جامعة في بلد أجنبي
٥٤	٥٤	٥٤	٥٤	العدد	
١,٨٧	١٨,٥٨	٤٨,٦٥	٣٠,٩	المعدل	المجموع
١٥٨	١٥٨	١٥٨	١٥٨	العدد	

ويزداد استخدام المراجع العربية عندما يحثّ المشرف على استعمالها (٤٣ بالمائة مقابل ١٤ بالمائة). ولا يمكن إرجاع ضعف استخدام المراجع العربية بالضرورة إلى عدم إمكانية القراءة في اللغة العربية: فقط ٦ بالمائة هم مبتدئون، و٣ بالمائة لا يستطيعون القراءة. ويقل استخدام المراجع الأجنبية عندما يكون التعليم في مرحلة الدراسة الثانوية أو الجامعية الأولى أو الدراسات العليا باللغة العربية. ويمكن أن نجد الاتجاه نفسه في ما

يتعلق بعلاقة استخدام المراجع بلغة التدريس الأجنبية، بينما لا تتأثر النسبة كثيراً عندما يكون التعليم بكلتا اللغتين العربية والأجنبية (انظر الجداول الأرقام (١٥)، و(١٦) و(١٧)).

وعلى الرغم من أن فقط ٥ بالمئة أعلنوا أنهم لا يتقنون اللغة الإنكليزية، إلا أنني أعتقد أن النسبة أعلى بكثير. لقد قمت بالتحقق من استخدام المراجع في الأطروحات والمذكرات لبعض المستجوبين، فتبين لي بكل وضوح عدم فهم المؤلفين للمراجع الأجنبية المستخدمة.

الجدول الرقم (١٥)

توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب لغة التدريس في الدراسات العليا

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	لغة التدريس في الدراسات العليا	
٢,٤٧	١٠	٣٣,٢٩	٥٤,٢٤	المعدل	العربية
٣٨	٣٨	٣٨	٣٨	العدد	
١,٤٨	٢٠,٢٦	٦٩,٢٧	٨,٩٩	المعدل	لغة أجنبية
٦٣	٦٣	٦٣	٦٣	العدد	
٠,٤٣	٢٣,٢٤	٣٥,٤٥	٤٠,٨٨	المعدل	كلاهما
٤٢	٤٢	٤٢	٤٢	العدد	
١,٤٣	١٨,٤١	٤٩,٧٨	٣٠,٣٨	المعدل	المجموع
١٤٣	١٤٣	١٤٣	١٤٣	العدد	

الجدول الرقم (١٦)

توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب لغة التدريس في مرحلة الدراسة الجامعية الأولى

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	لغة التدريس في مرحلة الدراسة الجامعية الأولى	
١,٥١	١٤,٦٦	٣١,٣٤	٥٢,٤٩	المعدل	العربية
٤٧	٤٧	٤٧	٤٧	العدد	
٢,٠٤	١٧,٤٥	٧١	٩,٥١	المعدل	لغة أجنبية
٤٦	٤٦	٤٦	٤٦	العدد	
٠,٣٦	٢٤,٥٣	٤٧,٨٧	٢٧,٢٤	المعدل	كلاهما
٤٥	٤٥	٤٥	٤٥	العدد	
١,٣١	١٨,٨١	٤٩,٩٥	٢٩,٩٣	المعدل	المجموع
١٣٨	١٣٨	١٣٨	١٣٨	العدد	

الجدول الرقم (١٧)
توزع لغات المراجع المستخدمة بحسب لغة التدريس
في مرحلة التعليم الثانوي

اللغات الأخرى	الفرنسية	الإنكليزية	العربية	لغة التدريس في مرحلة التعليم الثانوي	
١,٦٩	١١,٣	٣٩,٧٨	٤٧,٢٤	المعدل	العربية
٥٤	٥٤	٥٤	٥٤	العدد	
١,٩٦	٢٢,٨٣	٦٤,٥٩	١٠,٦١	المعدل	لغة أجنبية
٢٧	٢٧	٢٧	٢٧	العدد	
٢,٤	٢٤,١١	٤٩,٨٣	٢٣,٦٦	المعدل	كلاهما
٥٣	٥٣	٥٣	٥٣	العدد	
٢,٠٢	١٨,٦٩	٤٨,٧٥	٣٠,٥٣	المعدل	المجموع
١٣٤	١٣٤	١٣٤	١٣٤	العدد	

رابعاً: صعوبة استخدام المراجع العربية والأجنبية

عزى المستجوبون الذين لا يستخدمون كثيراً المراجع العربية صعوبة استخدامها إلى أسباب عدة: السبب الأول أنهم لا يجدون المراجع بسهولة في مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة، بمعنى آخر أنها غير متوفرة (ما يعادل نصف المستجوبين). في هذا الإطار، تشرح إحدى خريجات الجامعة اللبنانية بقولها: «بحثت في مكتبات الجامعات العربية الآتية: جامعة القاهرة، الجامعة الأردنية، معظم مكتبات الجامعات في لبنان، مكتبة الأسد، عن المواضيع الفرعية التي تؤلف موضوع أطروحتي ولم أجد إلا القليل». ويؤكد ذلك باحث آخر تخرج في العام ٢٠٠٤، قبل أن ينتشر الإنترنت في مصر، قائلاً: «بالنسبة إلى مراجع البحث، كان من الصعب الحصول على مراجع أجنبية وثيقة الصلة بالموضوع، إذا كنت سأعتمد فقط على مكتبة جامعة عين شمس، أو المكتبات العامة، بما فيها مكتبة الإسكندرية. ولكنني كنت مشتركاً في مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولولا ذلك، لعجزت فعلاً عن توفير المراجع اللازمة، من خلال ابتاعها». هنا يصبح الوضع أصعب بكثير للذين درسوا في الدول الأجنبية، حيث لا تتزود المكتبات غالباً بالمراجع العربية. أما السبب الثاني، فلأن مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة ليس ليهما خدمة اشتراك بقواعد بيانات للمقالات العلمية باللغة العربية (٤٣ بالمائة). أما بالنسبة إلى الخريجين قبل العام ٢٠٠٠، فهم ليسوا على دراية بتوفر قواعد البيانات. وشكا كثيرون من الخريجين الجدد من عدم توفر هذه الخدمة في المكتبات الجامعية. تشرح إحدى خريجات علم الاجتماع من جامعة بغداد ذلك بقولها: «لقد قمت بالبحث عن المراجع بشكل شخصي وفردني، وبالنسبة إلينا في جامعة بغداد إلى حد كتابة هذه السطور، لا توجد مجلات علمية عالمية أو أجنبية رصينة. لقد انقطع الاشتراك في المجلات العالمية منذ عام ١٩٨٩ في جامعة بغداد. وكثير من الأساتذة غير معني بحصول الطالب على مراجع أو مصادر، ومكتبات الكليات غير مؤهلة لكي توفر كتباً أو مجلات بهذا المستوى لطالب الدراسات العليا».

تلا ذلك سبب آخر، هو أن المراجع العربية ليست لها علاقة بموضوع الأطروحة، إضافة

إلى أنهم لم يجدوا مراجع عربية عندما بحثوا في محركات البحث كـ «غوغل» أو «ياهو» (٤٠) بالمئة). وأخيراً، أرجع ٢٥ بالمئة منهم الاستخدام القليل للمراجع العربية على أنهم لا يجدون المكتوب باللغة العربية مفيداً. وحول هذه النقطة يقول أحد المستجوبين: «المراجع العربية في كثير من الأحيان إما ضعيفة بذاتها، أو أنها مترجمة ترجمة ضعيفة لمراجع غنية، أو أنها لا تبحث المواضيع بالتنوع والعمق نفسهما للذين تبحثه من خلالها المراجع الأجنبية... الكتابات السوسولوجية أو الإثنولوجية حول مسألة الهجرة في الجنوب المغربي جدّ محدودة».

وقد بيّنت دراسة أقوم بإعدادها ضعف استخدام المراجع العربية في دراسات الهجرة حول الوطن العربي، بحيث يصل إلى حدّ تمثل المقالات المكتوبة في المجالات العربية بنسبة ٢٧ بالمئة، و ١١ بالمئة، للمقالات في المجالات الأجنبية. وقد عزی أحد الخريجين من كندا ذلك إلى أن هناك «سمعة بأن المكتوب باللغة العربية هي بحوث غير محكمة». وذكر أكثر من ٥ باحثين أن هناك مشكلة الكتب المترجمة إلى العربية التي يصعب قراءتها لسوء الترجمة، وغياب توحيد للمصطلحات العلمية^(٤). وأعتقد أن هذه مشكلة جدّ عويصة: فغياب جهة تشرعن المصطلحات الجديدة، يبقى الكثير من النصوص المترجمة مثقبة، أي أنها تشر بالعربية، ولكنها تبقى مليئة بالمصطلحات الأجنبية.

هناك نسبة قليلة من المستجوبين (٧ بالمئة) ممن أرادوا شراء الكتب أو المجالات التي لا يجدونها في المكتبات العامة، ولكنهم لا يستطيعون، لارتفاع أسعارها. ويمكن تفسير ذلك بقلة مصادر المنح الدراسية لطلاب الدراسات العليا في الوطن العربي (انظر الجدول الرقم (١٨)). ويظهر من بعض التفاصيل التي يقدمها بعض المستجوبين أن المراجع الأجنبية تستخدم بشكل أساسي للتأسيس النظري للأطروحة.

الجدول الرقم (١٨)

أسباب صعوبة استخدام المراجع العربية

الأجوبة			الأسباب
العدد	النسبة المئوية من الأجوبة	النسبة المئوية من المستجوبين	
٤٣	١٧,٩٠	٤١,٧٠	لأن المراجع العربية ليس لها علاقة بموضوع الأطروحة
٥١	٢١,٣٠	٤٩,٥٠	لأنني لا أجدها بسهولة في مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة
٧	٢,٩٠	٦,٨٠	لأنني ليس لدي القدرة على شراء الكتب العربية
٤٤	١٨,٣٠	٤٢,٧٠	لأن مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة ليس لديها خدمة اشتراك بقواعد بيانات للمقالات العلمية باللغة العربية

يتبع

(٤) حديثاً قام في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية مشروع «البنك السعودي للمصطلحات» (باسم)، الذي يعدّ أضخم بنك مصطلحات في الوطن العربي، حيث يضم ٧٥٠ ألف مصطلح في أربع لغات: العربية، والإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، لكنه ما زال في طور الإعداد.

تابع

٢٩,٨٠	١٧,١٠	٤١	لأنني لا أجد مراجع عربية عندما أبحث في محركات البحث (كـ «غوغل» أو «ياهو»)
٣٥,٠٠	١٥,٠٠	٣٦	لأنني لا أجد المكتوب باللغة العربية مفيداً
١٧,٥٠	٧,٥٠	١٨	لأن قدرتي على القراءة في اللغة العربية ليست جيدة
٢٣٣,٠٠	١٠٠,٠٠	٢٤٠	المجموع

أما في ما يتعلق باستخدام المراجع الأجنبية، فقد ردّ المستجوبون الذين لا يستخدمون كثيراً المراجع الأجنبية ذلك إلى أسباب عدة: أولها، لأنهم لا يجدونها بسهولة في مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة (٥٥ بالمئة)، تليها نسبة ٤٥ بالمئة، لأن قدرتهم على القراءة في اللغات الأجنبية ليست جيدة، ولأن مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة ليس لديها خدمة اشترك بقواعد بيانات للمقالات العلمية (٢٧ بالمئة) (انظر الجدول الرقم (١٩)).

أما الذين يبتاعون المراجع الأجنبية، فهم يجدونها بصعوبة. وفي سياق متصل، يفند أحد المستجوبين ذلك: «أصعب الأمور التي قابلتني في إنجاز أطروحتي هي المراجع، وذلك لندرته ولعدم ارتباطها بالموضوع الذي اخترته، وبالتالي فقد كان لزاماً عليّ التردد على المكتبة الوطنية الجزائرية، والمعرض الدولي للكتاب، وطلب بعض المراجع من بعض الأصدقاء المقيمين في الخارج. فقد كان الأمر بالنسبة إلى كتاب بيير بورديو *Cequeparlerveut dire*، أن أمنته من المعرض بعد أن سلّمت ثمنه إلى ناشر مغربي على أن يرسله إليّ في ما بعد، وفعلاً تم الأمر، لكن هذه الحيل العلمية للحصول على مراجع تأخذ وقتك كله على حساب المذكرة، مما سيحتّم تأخرك طبعاً في إنجازها».

الجدول الرقم (١٩)

أسباب صعوبة استخدام المراجع الأجنبية

الأجوبة			الأسباب
النسبة المئوية من المستجوبين	النسبة المئوية من الأجوبة	العدد	
٥٥,٤٠	٢٧,٠٠	٣١	لأنني لا أجد ما بسهولة في مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة
١٩,٦٠	٩,٦٠	١١	لأنني ليس لديّ القدرة على شراء الكتب الأجنبية
٣٧,٥٠	١٨,٣٠	٢١	لأن مكتبة الجامعة أو المكتبة العامة ليس لديها خدمة اشترك بقواعد بيانات للمقالات العلمية
١٠,٧٠	٥,٢٠	٦	لأنني لا أجد المكتوب باللغة الأجنبية مفيداً
٤٤,٦٠	٢١,٧٠	٢٥	لأن قدرتي على القراءة في اللغات الأجنبية ليست جيدة
٧,١٠	٣,٥٠	٤	لسبب آخر
٢٠٥,٤٠	١٠٠,٠٠	١١٥	المجموع

إذاً، يظهر الاستبيان جلياً أن هناك مشكلة بنيوية تواجه الباحث في دراسته العليا. ولكن هناك حيز مهم من الإشكال متعلق بلغة التدريس والسياسات التي تتبعها الجامعات العربية. وفي مقابلة أجريت مع رئيس الدراسات العليا في قسم التربية في إحدى الجامعات الوطنية الخليجية، ذكر الأخير أن الانتقال السريع من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزية كانت له نتائج جدّ سلبية على طلاب الماجستير في جامعتهم على مستويين: المستوى الأول، منع الكثير من المدرّسات الراغبات في تحسين طرق تعليمهن من الدخول في البرنامج، وذلك لضعف لغتهن الإنكليزية. وبذلك نقص عدد المشاركات في البرنامج من ٢٥ طالبة في العام ٢٠٠٦ إلى ٦ طالبات في العام ٢٠١٠، أي بعد تغيير لغة البرنامج. أما المستوى الثاني، فقد لاحظت هذه الأستاذة أن الطالبات اللواتي دخلن إلى البرنامج لا يهضمن المادة، وقد استندت في ذلك إلى أن هناك نظريات كُنَّ يظننَّ أنهن فهمنها، لكنهن لم يكننَّ قادرات على استخدامها في سياق بحثهن.

ومن خلال إحدى الاستشارات التي قمتُ بها في الجامعات الخليجية (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩) لتقييم برنامج العلوم الاجتماعية، لاحظتُ مشكلات كثيرة في مناهج التعليم، فالكتب المقررة قديمة ونمطية. واقتُرحت أن تقوم هيئة متخصصة في كل فرع بإعادة النظر في المناهج، بحيث تختار من الأدبيات العربية الحديثة أولاً، وتقوم بترجمة نصوص أجنبية إلى العربية لتكملة ما ينقص. كما اقتُرحت أن يتم التأكد من مستوى اللغة الأجنبية لدى الطلاب المقبولين، بحيث يستطيعون قراءة المراجع الأجنبية عند الحاجة، وأن تتم ترجمة بعض النصوص إلى العربية. ويمكن أن تكون هناك مادة أو مادتان لتدريس نصوص أجنبية بلغتها الأصلية. ومع الأسف، لم يتم تبني هذه الاقتراحات، وتم تحويل بعض أقسام العلوم الاجتماعية إلى اللغة الإنكليزية. إن ما حصل في بعض بلدان الخليج هو هروب من الهوية العربية باتجاه الثقافة الفولكلورية المحلية، مندفعين بنزعة الأقليات الإثنية، أو التحوّل إلى عولة فهم منها أن لها حاملين: المؤسسات التعليمية الأجنبية، واللغة الإنكليزية.

لقد أظهر استبيان استخدام المراجع جلياً أن الطالب الذي أتقن اللغة الأجنبية من خلال التعليم المزدوج بالعربية والأجنبية في المرحلتين الثانوية أو الجامعية، يستطيع أن يستخدم المراجع العلمية بشكل أكثر توازناً من أولئك الذين تعلّموا بلغة واحدة، سواء كانت العربية أو الأجنبية، بحيث لم يتم تهميش اللغة العربية، وفي الوقت نفسه يستفيد الباحث من الدراسات الأجنبية التي تتسم في حداثتها ومواكبتها لنظريات وإشكاليات عالمية.

إذاً، ليس المطلوب حصر مشكلة التعليم العالي بخيارين: إما التدريس كلياً باللغة العربية، أو كلياً باللغة الأجنبية، ولكن كيف يمكن في مرحلة انتقالية اعتماد التدريس باللغتين، مع إعطاء اللغة العربية الأولوية، وذلك في كل البرامج والأقسام، وليس فقط في العلوم الاجتماعية؟ وأتحدّث هنا عن مرحلة انتقالية، وذلك لأنه إذا تم التسريع في عملية الترجمة، وأصبحت الكتب والمقالات باللغة العربية متوفرة في المكتبات العامة والجامعية وبنوك المعلومات، فربما لن يكون هناك حاجة عندئذ إلى التدريس بأية لغة غير العربية، مع إبقاء الحرص على ضرورة إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل من قبل الطالب العربي.

وبالرغم من أن اللغة تعتبر واسماً (marker) عالي الرمزية للهوية، فإن الباحثين يتمتعون بهويات متعددة الطبقات، تتيح لهم إمكانية الانفتاح، واستيعاب أكثر من لغة، كما تتيح لهم إمكانية الاهتمام بالبحث والشعور بأنهم معنيون لا بالسياقين المحلي والمناطقى فقط، بل بالسياق العالمي أيضاً. وبالتالي تعتبر لغة التدريس، كمكوّن ثقافي وسياسي، مرتبطة بتشكيل الهوية أو بالحصول على الاستقلال السياسي، وفي الوقت نفسه هي أيضاً مكوّن اقتصادي – سياسي في عملية استحضار المشاكل المرتبطة بندرة المصادر التي تحدّ من عملية إنتاج الكتب التدريسية اللازمة، واستراتيجيات التسويق التي يلجأ إليها الناشر والدوليون في الجامعات المركزية (Sultana, 1999: 31). إذاً، هناك أسواق مختلفة للغات المختلفة، الأمر الذي يجعل من اللغة الإنكليزية لغة بالغة الأهمية بوصفها أداة للتدريس. ولكن الذي حصل في البلدان العربية هو أنه تمّ استبدال اللغة العربية في الجامعات المستحدثة أو الخاصة كلياً، فليس هناك موجب لوجود منهج يخلو تماماً من مراجع منشورة باللغة العربية. وقد أظهرت دراستي التي أجريتها على ثلاثين شخصاً توصيفاً لمساقات في العلوم الاجتماعية التي تُدرّس في جامعات القديس يوسف، والجامعة الأميركية اللبنانية والجامعة الأميركية في بيروت، ندرة توفر مراجع باللغة العربية (هناك مرجعان فقط)، حتى كمواضع قراءة ثانوية.

عوضاً عن الخاتمة

لقد أردت في عجالة من هذه الافتتاحية أن أقدم تحليلاً إحصائياً وصفيّاً لمواد مجلة إضافات من دون أية معيارية، وذلك لأنني رئيس تحرير هذه المجلة. وسأترك للقارئ إمكانية إصدار حكم قيمي سلبي أو إيجابي حول المجلة. وعليّ أن أضيف أن هذا التحليل الإحصائي هو ضروري جداً لهيئة تحرير إضافات من وجهين: للنظر في كيفية تحسين المنتج السوسولوجي العربي، ودفع عملية إيجاد توازن بين استخدام المراجع المختلفة □

المراجع

بدوي، أحمد موسى (٢٠٠٩). الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة: حالة علم الاجتماع في الجامعات المصرية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٧٦)

Hanafi, Sari (2011). «University Systems in the Arab East: Publish Globally and Perish Locally vs. Publish Locally and Perish Globally.» *Current Sociology*: vol. 59, no. 3, pp. 291 - 309.

Sultana, Roland (1999). «The Euro-Mediterranean Region and Its Universities: An Overview of Trends, Challenges and Prospects.» *Mediterranean Journal of Educational Studies*: vol. 4, no. 2, pp. 7-49.